



الزوابع

تأليف: ناجي السعدي



الزَّوَابِع
العالم؛ حقيقته وخياله
تأليف: ناجي السَّعدي

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٣٥
عن المطبعة الوطنيَّة في عكا

وزارة الثقافة الفلسطينية

سلسلة الموروث الثقافي

اسم المؤلف: ناجي السَّعدي

اسم الكتاب: الرَّواع

الطبعة الأولى: ١٩٣٥ عن المطبعة الوطنية في عكا

الطبعة الثانية: ٢٠٢٢

مراجعة وتدقيق: رشيد عناية

تصميم الغلاف: فاطمة حسين

لوحة الغلاف للفنانة: صوفي حلبي

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين

الزَّوَابِعُ

تقديم

سيادة الرئيس محمود عباس «أبو مازن»

لم تكن فلسطين أرضاً قاحلة، بل أرض خصبة مطاوعة
دكان ابناؤها وبناتها بدمعهم في الشعر والقصة والرواية
والمرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفن
والفلسفة. انه هذه الكوكبية من الكتب التي نعيد اصدها
تقدم باقية من هذه البدايات التي تملك في عمقها قيمة لغوية
التي هي روحنا للثقافة والمعرفة.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والكتبات والصحف والمجلات
والمسرح ودور السينما والرائد الثقافية والمدارس والمعاهد
ولم تكن سنانة يهدى بيده للضرر، ويفدوه اليد لطلبها
للعلم والمعرفة في حياة الثقافة التي كانت تزدهر بها.
نعتز بمجودتنا للثقافة الذي ابدعه اجدادنا، ونريد ان
نحافظ عليه، ونريد للجيل القادم ان يقرأه ويعتقد
به ويتبع كما ابدع اسلافهم.

ع
٢٠١٤/٢/٢٤

الإهداء

إن كانت ثقافتني يرجع فضلها إلى دور العلم التي نشأت بها، فتفكيري يعود إلى والدي المرحوم؛ الذي نسجتني من حبالها شخصيته، فألى روحه الطاهرة أهدي كتابي هذا الذي هو زوابع نفسي في دنيا الحقائق والخيال.

ناجي السَّعدي

الحرية

الحرية كوكب في سماء الحياة، الحرية روضة ورود على جبل السلام الحرية تاج الممالك، ومقر القوة، ورأس العدل، ونور الإيمان على أركان من الحرية يقوم الوجود في العالم، وفي صواعق الرق يتقوض من الجذور. وهل يتمتع العالم بالحرية الآن وهل هو موجود حقيقة أم خيالاً؟

يعرف الناس الحرية تلك التي تمنحهم أيها المدنيين والشرائع بأن يكونوا في نأي عن رق بعضهم بعضا. ولو فكروا في ناحية أعمالهم واستظهروا أخطاءها وما نجم أو ينجم عن تلك الأخطاء من الأخطار لأدركوا بأنهم ليسوا أحرارا، وأنهم سائرون في حياتهم على ما يشتهيهم تفكيرهم المضطرب لا ضمائرهم وعقولهم، وإن اضطراب تفكيرهم ناجم عن انحلال المادة الحيوية في أشباح عقولهم، وأنهم تائهون في ظلمات الحياة.

إن الحرية في حياة الإنسان حرية عقله بالتصرف بشئونه تصرف المالك فلا يعصيه أمرا وإذا جابه كارثة أو معضلة يقف موقف القائد المدير أو القبطان الذي يعرف كيف ينجي سفينته من أخطار الأنواء. تلك هي الحرية الحقيقية. فهل لها وجود في فرد أو جماعة في عالم اليوم؟

الفلسفة والعالم

إن للفلسفة تاريخاً كتاريخ البشر من حيث الأدوار والفصول، وتلك الأدوار والفصول التي تمثل على مسرح الفكر أبطالهم عباقرة البشر بأسره، كانت الفلسفة في ضحى تاريخها أي في زمن حكماء اليونان تنشر في الآفاق تعاليم الفضيحة في عالم يخفق قلبه بذكرى الفضيحة ويقدمها، على أن استبداد بعض ذوي السلطة المستبدين ومحاولتهم إخفاق تلك الرياحين الإنسانية (تعاليم الفلاسفة الحكماء) كان كمحاولة الغمام من ستر أنوار الشمس. وكما أن تلك الأنوار أنوار الشمس المضيئة نواحي الكون تخترق الغمام فيسطع النهار رغم كثافته بضياؤها فإن نور الحكماء كان يتجلى في أوساط الأمم والأفراد رغم استبداد ذوي النفوذ والسلطان.

كان العالم وقتئذ ممتلك الغرائز الطبيعية التي نمت فيه منذ نشأته، قوي بإرادته، قاهر بقلبه الصحيح، فمجد تلك الأبطال وأحيا ذكرها تماثيل ظلت خالدة كأنها أعلام من الأنوار خافقة في ظلمات اليوم ولما تقدمت المادة وتقلد المجتمع كرسي مجدها على عروش من النعم بدأ يفقد غرائز الطبيعية التي بها كان يملك قوى نفسه وإرادته. وبدأ نوره الطبيعي ينطفئ بالتدريج وحلت الظلمة التي هي نهاية سعادته وأشرق النور الصناعي يأتلق، وسلمت الحقيقة عرشها الغالي إلى الخيال. فالفلسفة وإن تشع الآن من مخيلات أعلام الفكر أو من وراء تواريخ العظماء الأقحاح وأفكارهم الخالدة فليس تنورها مر سبيل في عالم اليوم وبذلك تطورت الفلسفة من ناحية العمل إلى ناحية القول.

والفكر وإن يتعالى فإنه في أحط درجاته في ناحية الأثر وهو لا يخرج عن حد كونه يمثل إحدى الروايات على مسرح الخيال وما تلك النعم التي يتخيل العالم بأنه يفترسها سوى خيال من رواية أخرجها الخيال للتمثيل على مسارح الخيال.

الصّراع الكبير بين قوى الحياة عالم السّلام لا وجود له

عندما حاولت فرنسا أن تضم ضفة الرين اليسرى الألمانية إلى بلادها بعيد الحرب العظمى دافعت بريطانيا عن حق ألمانيا بإعادة الضفة المذكورة إليها وأرادت فرنسا بالضم المذكور أن تقوي ضعفها بقوى الطبيعة فتجعل النهر حدًّا طبيعيًّا لها، وتأمين بذلك من شر جارتها القوية ألمانيا.

وكل من الرأيين مصيب ولكن لا يمكن العمل بكليهما معا بل بأحدهما، وأعيدت الضفة إلى ألمانيا فرجحت القوة على الضعف وفي الحالتين تتهيأ الصوارم للنضال. وبما أن العالم كما في هذا المثل مؤلف من القوة والضعف والحق والباطل يستنتج بأن السلم لم يخلقه خالقه، وأن فترات السكون بين كل حرب أو نزاع كالمراحل التي تقطعها الجيوش في الميادين بين كل هجوم وآخر، وأن الحياة الدنيا لم تكن للزهو والمسرات وإنما هي صراع قوي بين ذوي الحياة فيها للتمييز بين الخبيث والطيب ليمتحن الله عباده.

عَظَمَةُ الفِكرِ

إن الاختراع والفلسفة يتخلدان في العالم في كل ناحية فيه، والأعمال الخيرية كبناء المدارس وأماكن العبادة والمستشفيات وغيرها لم يعد لها ذكر إلا في المكان الذي شيدت فيه ولماذا؟ إنني ألفت في ناحية الفلسفة إلى المجتمع فأرى أنه ينظر إلى الخوارق النادرة بأنها منحة سماوية.

وعظمة الفكر نادرة في هذا العالم ومع أن الأعمال الخيرية أقرب إلى الله وإلى الانسانية فإنه ينظر إليها في ناحية الفضول معتقداً أنها تزيد عن كفاف العيش المرغه.

إن العالم يسير بهدنيته إلى الأمام وهو يرى الفكر فائدة وسبيل نعمه ورفاهيته ولذلك فهو يقدسه ويخلده، فالمخترعون والفلاسفة مخلدون فيه ما بقيت الكواكب والنجوم. والفكر في ناحيته المدنية قطع بالعالم في مدة قرن واحد أشواطاً لم يقطع مثلها في عشرات القرون في الأزمنة الخالية والفضل في ذلك يعود إلى أن مفكري هذا العصر بلغت أفكارهم في عظمتها منتهى السعة والعلو الذي فوق طاقة البشر ويحق للعالم تقديسهم بأنهم الطبقة العليا في المجتمع.

الأدب العالي

إن الوصف البليغ هو أعلى درجات الأدب ففي الخيال الرائع يتألق البيان تألق الجاذبية في البدور الحسان. ومن المعجزات الخارقات تنميق الحقائق وتحليلها تصويراً؛ ولذا فالفلسفة من الأمور القليلة النادرة في عالم الدنيا، والأدباء أكثر عددًا من الفلاسفة ولكنهم أقل خلودًا وكما أن الازهاير تذبذب بعد زمانها كذلك الأدباء.

ولقد يخطئ الأديب أن يتصور خلوده، بل يجب أن يعلم بأنه كالغمام يخلق فوق العالم ليسقي نواته ويزول وإني أورد مثلاً من الأدب المرصع بالتمثيل وبالخيال؛ قال العلامة السيد محمد توفيق البكري عضو مجلس الشورى والجمعية العمومية سابقاً في كتابه (صهاريج اللؤلؤ) في وصفه البحر ما يلي:

«والبحر لونه كالزجاج الندي، أو السيف العدي، يلوح كالصفيحة المدحوة، أو المرأة المجلوة، وحينما يضرب زخاره ويموج مواره، فكأنها سيرت الجبال، وكأما ترى قبابا فوق أفيال، وكأن قبورا في اليم تحفر وألوية عالية تُنشر، وكان الغد يمحض عن زبد، وكان الدوي من جرجرة الأذى زئير الأسد، وهزيم الرعد».

وقال في الليل والنجوم:

«ثم إذا غاب الهلال وتوارى في الحجال، ألفت الكون من السواد في لبوس، حديدًا أو لباس حداد وكأما الماء سماء وكان السماء ماء، وكان

النجوم در تموج في بحر أو ثقوب قبة الديجور، يلوح منها النور، أو سكاك دلاص أو فلق رصاص أو عيون جراد، أو جمر في رماد، أو الماء صفائح فضة بيضاء سمّرت بمسامير صغار من نضار فلا تفتأ السفينة تكابد الويل من البحر والليل حتى يلوح من الأفق الضياء كابتسام الشفة اللمياء، فإذا السفينة كأنها سر كتمه الظلام وكشفه الغرام».

وقال منصور فهمي في وصف الجمال بما هو آت:

«الجمال متكبر قاهر. متكبر لأنه يجلس عن أن يقدمه للنفوس أحد، فهو يعرف نفسه بنفسه؛ قاهر لأنه يغلب الأنفوس القوية على أمرها فيوقع في أسرهِ من يشاء ويتخير لرفه من شاء.

الجمال كالله وكالقوى الخفية من حيث إنها لا تعرف بذواتها ولكنها تعرف بآثارها. الجمال صحراء واسعة لا حدود لها، يضل فيها الساري من أي ناحية سار، ولكنه أينما سار وجد فيه جنات ونعيما.

الجمال كتاب عظيم وضعه مزين السماوات والأرض؛ القادر على كل شيء»

وكذا في مقاله السماء:

«إن الزهور والحقول لتنتعش انتعاشا عندما تشرق عليها الشمس من سماواتها في الصباح وإن أرواح الأفراد والأمم لتنتعش كذلك إذا أشرقت عليها شمس المثل السامية. المثل الأسمى هو سماء صافية تستخرج البصيرة من كبدها كل خير. بل هو أفق رفيع يستنهض العواطف إليه فتتحرك النفس دائماً للراقي».

صَيِّحَة سنة ١٩٣٠ الكبرى

كوارث الشَّرْق

إن اتحاد جميع الشعوب في الشرق هو عز الشرق الذي يضيء على العالم، نار السلام على أن ذلك النور المدفون سيشرق على العالم إشرافًا منيرًا يعيد إليه رفاهيته وعزه إذا اتحد الشرق ونبذ الخلاف والتفت لما يرقيه وينهض به نحو التمدن.

لم تخص الطبيعة الذكاء للغرب وحده ففي كل أمة ذكاء، وذكاء الشرق لا يقل عن ذكاء الغرب فسعد زغلول ومصطفى كمال وغاندي نجوم سطعت في سماء الشرق تثبت بأن في كل سماء كواكب، فما قام به مصطفى كمال تغنى به دهاء الغرب وترنمت به الحضارة، فإذا أعاد الشرق حرите تصفو سماؤه وتلمع فيها نجوم غير هذه النجوم. لقد حوى الشرق بين شعوبه أمما كثيرة العدد وإذا بلغت في رقيها وتمدنها ما بلغته أمم الغرب فإنها تسود العالم بمقدراته في الحادثات. إن مقدرات الأمم التي هي اليوم بين أيدي الدول العظمى تصبح تحت ظل عز الشرق وبين شعاع ضياء نوره تبهر عيون الشرقيين وتجعلهم يمشون تيتها وفخارا، فأول خطوة في التمدن سارت بها اليابان هزت أوروبا وجعلتها تخشى التمدن في الشرق.

وما ضجيج ألمانيا عنا ببعيد، لقد ضجت أقوى دول العالم التمدن الشرقي فناشدت سائر الدول للتعاون على درء الخطر. إن دول أوروبا تعد رقي الشرق خطرًا أو تخشى بريق نوره فذلك النور الذي هو منار

السلام في العالم ترى فيه دول أوروبا شؤمها وانقراض عزها فالطامع لا يرى عزه إلا بافتراس فرائسه واصطياد أطماعه بشراكه. لا يكفي أوروبا بما شحنته حتى الآن بواخرها إلى بلادها من كنوز الشرق وأمواله فتحاول استملاكه ملكا مملوكا إلى يوم الدين لا يمكن انفصاله، بل يبقى بين نار الأمر والنهي يتقلب كما يتقلب العجين بين أيدي صاحبه على نار للشوي وإذا كان الشرق يرى نفسه والحالة هذه في عزه ولا يحمل نفسه مشاق خلاصه فجدير بالغرب أن يطلق عليه عنان تحكمه ويصب عليه نيارين ظلم. لم تكن القوة قوة السيف والمدفع وإنما هي قوة الإجماع وإذا اتحدت القلوب وتعاضدت الصدور في أي أمة فإنها تقاوم النيران. فالقلوب القوية المتحدة كالصخور الجامدة وعلى الشرقيين أن يدفعوا طارئة الكوارث بقلوبهم وتعاضدهم ليعيشوا كغيرهم أمناء، أليسوا بشرا لهم عقول! لم يكن الغربيون أنبياء يهلكون ولا سحرة يسحرون، ولا جنا يخيفون، بل هم كسائر البشر ضعفاء، يضيفهم البرد ويميتهم الأجل، بل إنهم سعوا وتقدموا وسادوا وحافظوا على حقوقهم بدهائهم، وإن السير على طريقتهم خير الطرق إلى الصواب فالواجب على الشرقيين أن يعلموا بأن الحياة الحرة من حقوقهم وأن ضياع حريتهم إنما هو ضياع حقوقهم فلا يتهاونوا في الحصول عليها فالحرية من ضروريات الحياة.

المصائب الباطنية وسرّها الأعلى

يقاسي المعتدون في دنياهم مصيبتين فأحدهما ضربات الضمائر المستمرة كالأم، والأخرى خوفهم الدائم؛ وليتصور المرء نفسه حينما يرى خصمه سائرًا وراءه أو مقبلًا نحوه في ظلمات الليل يشعر أن أعصاب قلبه تتقطع، وفي المصائب الباطنية سر عظيم جليل.

إنني اناجي الفلسفة متخيلا، أرى النور يتألق من خلال البحث ولا أعتقد بنور في العالم سوى الفضيلة؛ ولذلك أتخيل أن لها يدًا فيها فالناس كلها خلقت من نطفة وأصبحت لحما وعظما، ولماذا يخاف الظالمون منهم من المظلومين؟ فليس الخوف سوى مادة من الطبيعة والفضيلة أميرتها فإنها لا شك تنتقم به من الرذيلة لنشرها ظلماتها في العالمين.

على أمواج الخيال

١

في الغرب إذا ضرب أحدهم غيره تنهال اللعنة على الضارب انهيال الغيث، وفي الشرق يسقط المضروب في أعين الناس ويعلو الضارب فيرى نفسه وهو يسير في عرض السجن ذهابًا وإيابًا كأنه فارس منتصر، ولو يعود إليه عقله السليم لأدرك بأن خصمه هو الذي انتصر عليه بفضيلة صبره أو لكونه شهيدًا، ولكن العقول السليمة في الشرق دفنت في بطون التاريخ منذ قرون. تقوم بلدته وتقعده يوم خروجه من السجن وتأتي الوفود مواكبٍ لاستقباله ودعوته، فتدوم الولايم سبع ليالٍ وثمانية أيام كأيام الحسوم المذكورة في القرآن الكريم وهذا ما يدفع الناس لمهاجمة بعضهم بعضا كما نراه اليوم، ويتساقط البلاء كالصواعق على البشر. إن تشجيع الرذيلة بهذا الشكل المريخ من أفضح الأمور وأدلهها على الانحطاط الأخلاقي والعقلي وهل من انحطاط في الشرق أعظم من الكابوس الذي تنزل له القرون ولو شجع الناس الفضيلة بالاعتراف بها على الأقل لتقدم الشرق في صناعته وسياسته وساد كثرة عديدة على العالم بأسره، على أن الإخلاص رائدي ولست «نابغة العرب»، كما يقول الأديب العبقري محمد رفيق اللبايدي ولا «فيلسوفًا»، كما يقول العالم المصري القدير محمد سعد أفندي صبح، ولكني مخلص في قولي وعملي، فإذا ثابر الشرق على خصته في تشجيع الرذيلة، لا ترجو سعادته، وأما إذا غير ذلك واعترف لكل ذي فضل فضله، يتقدم كغيره ويكون عزيزًا في الدنيا والآخرة.

سأهت بدر السماء في ليلة من ليالي ١٩٢٩ بين أشجار الصنوبر في عالية (لبنان) كانت ليلة وكنت مضطرباً فيها، أقول مضطرباً وباسمًا معًا وذلك لأن الابتسامة لا تفارق ثغري وحتى في حالات الاضطراب، كما تراني الناس كنت مضطرباً لأن أحدهم عصى على دراهم كنت قد وضعتها معه، وباسمًا لأن العالم اليوم يضحك بأدواره التي يمثلها في مسارح أشبه إلى الخيال منها إلى الحقيقة، لقد سبق أن قرأت في مجلة الكلية بأن أحد الفرنسيين يبتسم للكوارث كما كتبت عنه كريمته وقرظه الشاعر الدمشقي الكبير شفيق أفندي جبر وصرت أقارن بين الابتسامتين وأيهما أحرى بالتقديس والتقريظ، قرظت ابتسامتي بأن مزاجي بارد، وابتسامته بأنه حكيم وخاطبت بدر السماء بأنه لو سار الناس جميعًا بحكمة كحكمة الفرنسي لأشرفت بهم الحياة الدنيا إشراقًا يفوق إشراقه، إن السعادة سعادة النفس وليست سعادة الخيال وما البدر ونوره سوى الخيال في هذه الحياة الدنيا. قد لا يحكم الأحمق على طبعه ولكنه يستطيع أن يقوده إذا تمشى بحكمة، وأين الحكمة من الناس في هذا الزمن ولو ابتسمت الناس للكوارث لكانوا جميعهم سعداء ولكنهم والعنف والشدة والقسوة والبكاء اليوم سواء ولا يخلو بلد أو محيط من السعداء ذوي الابتسامات الطبيعية، ولكنني أتمنى أن تسير الناس جميعها مثلهم فلا يحزنون في نكباتهم ولا يفرحون في مسراتهم وأن تكون حياتهم كلها ابتسامات طبيعية هادئة.

وادي الظلمات

قال الدكتور منصور فهمي في كتابه «خطرات نفس» في تصويره الناس ما يلي:

«رذيلتان فاشيتان في الناس ترتكزان على أسوأ خلال البشر وأكثر ما تعتمدان عليه: الجبن، والحقد، والحسد.

رذيلتان إحداهما مثلها مثل الوقح الذي لا يبالي أن يستر أمام الغير ما به من مظاهر القحة والسماجة ولا يستحي أن يبرز أمام الأنظار بما يلبسه من عيب ظاهر. وأخرى مثلها مثل اللص الذي يتلمس لنفسه من الظلمات مخبأ يسكن إليه بما يسلب وهناك يلقي غنيمته ويدور ببصره فيما حوله من الخوف وتجحظ عيناه الحذر وكلما ذكر بأنه سارق دق فؤاده فزعاً وجزعاً.

أما الرذيلة الأولى فهي رذيلة الغيبة: وهي أن تقول في الناس من خلفهم ما يؤذيهم ولو كان حقاً.

وأما الثانية فهي رذيلة البهتان أو الاختلاق وذلك أن تقول في الناس ما يؤذيهم وأنت تعلم أنك غير صادق فيما تقول»

أراد الدكتور أن يكون في هذا مقام المصور للناس، يخرج إليهم صوراً ليريهم أشكالهم فيعملوا على تحويلها ولكن فاته أن البشر اليوم كآلة صماء تحركها الأهواء فينقاد لها وينيرها الفكر فلا تشعر بنوره فتتجلى آية الله «كلا بل ران على قلوبهم» ظاهرة بحقيقتها أن القلوب البشرية

تغشاها ظلمات متراصة بعضها فوق بعض ظلمات الآثام والجحود
والمكر فلم تعد تحنو لحقيقة من حقائق الوجود بل لم تعد وهي
المستقرة في وادي الظلمات الألفة لها تتشوق إلى أنوار الأفق والأزاهير
المنيرة في روض السماء فعالم اليوم هو عالم الغد لن يبدل صورة نفسه
غير الله بمحقه من الدنيا وخلقه من جديد.

الشعر العالى بين القديم والجديد

كان الشعر العربي في الأزمنة المتقدمة بما يحفه من الغريب من كلمات اللغة ويجربه في سياق حربي ثقيل على الروح يحمل النفس على الاندفاع وراء نزعاتها وأهوائها ويبعدها عن التجميل بالشيم الكريمة وربما كان لتغير الطباع والأخلاق شيء من أثر الشعر القديم في الناس والشعر الجديد وأن تحفه البساطة يسطح بمعاني الكمال الإنساني فتتغلب فيه نزعة التسامح والتساهل والصبر على الاندفاع. غير أن عالم اليوم غير العالم الماضي ولو كان الشعر الجديد في العالم القديم لكان في الكيان الاجتماعي له أعظم أثر بإصلاح ما كان فيه التخدش في الأخلاق. والعالم اليوم فقد إحساسه بفقدانه إرادته فلم يعد للشعر ولا للحديد والنار فيه من خشية بل إن الكوارث على شدتها و بطشها لم يعد يحسب لها حساب، فاندفاعه وراء الأهواء المثقلة بالكوارث والأهوال كاندفاع الطفل الذي لا يعرف ما في الحياة من الظلمات أو الأنوار، وهذا مثال الشعر الجديد؛ قال المرحوم شوقي أمير الشعراء في قصيدة يناجي الأستانة بها ما يلي:

تلك الخمائل والعيون اختارها

لك من ربا جناته باريك

قد أفرغت فيك الطبيعة سحرها

من ذا الذي من سحرها يرقيك

تالله ما فتن العيون ولذها

كقلائد الخلجان في هاديك

عن جيدك الحالي تلتفت الربى

واستضحكت حور الجنان بفيك

قل للخلافة قول باك شمسها

بالأمس لما آذنت بدلوك

يا جذوة التوحيد هل لك مطفى

والله جل جلاله مذكيك

وقال في قصيدته (نهج البردة) ما هو آت:

الله يشهد أني لا أعارضه

من ذا يعارض صوب العارض العرم

هذا مقام من الرحمن مقتبس

ترمي مهابته سحبان بالكم

البدر دونك في حسن وفي شرف

والبحر دونك في خير وفي كرم

شم الجبال إذا طاولتها انخفضت

والأنجم الزهر ما واسمتها تسم

وقال في قصيدته (تحية الرحالة المصري):

هل كان في الوهم أن الطير يخلفها

على السماء لطيف الصنع مخترع

أعيا العقاب مداهم في السماء وما

راموا من القبة الكبرى وما قرعوا

وقال في قصيدته (استقلال مصر)

إذا رأيت الهوى في أمة حكما

فاحكم هنالك أن العقل قد ذهب

قالوا الحماية قد ذهبت قلت لا عجب

بل كان باطلها فيكم هو العجبا

رأس الحماية مقطوع فلا عدمت

كناثة الله حزما يقطع الذنبا

أو تسألون النبي يوم جند لها

بأي سيف على يافوخها ضربا

أبالذي جر يوم السلم متشحا

أم بالذي هز يوم الحرب مختضبا

يا فاتح القدس خل السيف ناحية

ليس الصليب حديدًا كان بل خشبا

إذا نظرت إلى أين انتهت يده

وكيف جاوز في سلطانه القطبا

علمت أن وراء الضعف مقدرة

وأن الحق لا للقوة الغلبا

وقال في قصيدته (العلم والتعليم وواجب المعلم)

يا أرض مذ فقد المعلم نفسه

بين الشموس وبين شرقك جيلا

ذهب الذين حموا حقيقة علمهم

واستعذبوا فيها العذاب وبيلا

في عالم صخب الحياة مقيداً

بالفرد محزوماً به مغلولا

سقراط أعطى الكأس وهي منية

شفتي محب يشتهي التقييلا

عرضوا الحياة عليه وهي غباوة

فأبى وآثر أن يموت نبيلاً

إن الشجاعة في القلوب كثيرة

ووجدت شجعان العقول قليلاً

وقال في قصيدة وصف بها دمشق ما يلي:

مررت بالمسجد المحزون أسأله

هل في المصلي أو المحراب مروان؟

تغير المسجد المحزون واختلفت

على المنابر أحرار وعبدان

آمنت بالله واستثنيت جنته

دمشق روح وجنات وريحان

قال الرفاق وقد هبت خمائلها

الأرض دار لها الفيحاء بستان

جرى صفق يلقانا بها بردى

كما تلتقك دون الخلد رضوان

وهذا مثال الشعر القديم، قال أبي الطيب المتنبي:

يقولون إن العجز عقل

وتلك مزية الطبع اللئيم

وكل شجاعة في المرء تغني

ولا مثل الشجاعة في الحكيم

و قال امرؤ القيس:

ألم أخبرك أن الدهر غول

ختور العهد يلتهم الرحالا

أزال من المصانع ذا رياش

وقد ملك السهولة والجبالا

همام طحطح الآفاق وحيأ

وساق إلى مشاربها الرعالا

وسد حيث ترقى الشمس سدا

ليأجوج ومأجوج الجبالا

كتاب مفتوح إلى ملوك وأمراء وزعماء العرب

إن حالة العالم العربي من جراء التخاصم والاختلاف بين زعمائه وقادته وخيمة العاقبة والنتائج ولا ريب أن المسؤولية العظمى أمام التاريخ والمدنية تقع على الملوك والأمراء والزعماء الذين يعلمون بضرورة التآلف والاتحاد في هذا الزمن الذي انتعشت فيه روح اليقظة والنهوض في نفوس الشعوب وبينما كنا ننتظر أن تثور تلك العاصفة الحية في البلاد العربية وإذا بالحوادث تأتينا بين حين وآخر بازدياد التنافر والشقاق، ثم إن سلاسل وأغلالاً أجنبية تضع في الأعناق على أن تلك المعاهدات التي تعقد لم تكن سوى قيود حديدية يتمكن بها الأجنبي من استعمار البلاد واستغلالها لمصلحه وفي النهاية استعبادها من حيث لا تدري، فإليكم أيها الملوك والأمراء تعود المسؤولية، مسؤولية القضاء على الحياة الاستقلالية في البلاد العربية وعليكم تقع تبعه الدماء التي تسفك والأرواح التي تزهق في المستقبل لتحرر من الاستعباد والنير. إن الزمان يهيئ لكم صفحات سوداء مظلمة. أشفقوا على أنفسكم فالتاريخ لكم بالمرصاد.

آجال الأمم وأدوارها

إن التاريخ أدوار! يقطعها البشر في حياتهم، والبشر أمم معدودات فكل منها دور تزدهر فيه سماء سعادتها فتتلاً بالورود وبهجة الأزهار، ثم يهوي بها طالع الشؤم فيدور كوكب النحس دورته وتلاشى بعد ذلك وتنهار.

للأمم أدوار أو لنا دورنا في هذا المعترك الهائل، نقضي ما قضته الأمم الغابرة بين مساوئ الاشواك على أن الخلود على سفن الرغد والهناء في مرافئ السعادة سيعود إلى أمتنا متى شاء الله وتقلب الزمان، ولكن الجد في العمل والنزوع نحو الحياة الصالحة سنة يتطلبها التجدد في العمران والتقدم في الارتقاء فمن أراد أن يجدد بناء أمته فليضاعف عزمته. إن احياء بناء الأمة في تجديده هي الغاية السلمية التي نزعنا إليها الأمم الحية، فنالت مكانها من الرقي. هذه آجال الأمم وتلك أدوارها ولله في خلقه حكمة بالغه والله ولي الصابرين.

نسمات وأنوار

١

ترقى سماحة الأستاذ الكبير الشيخ رامز أفندي مسمار إلى كرسي القضاء الشرعي كما ترقى كبير زعماء الشباب الفلسطيني الأستاذ أكرم أفندي زعيتر إلى أعظم مدرسة في المملكة العراقية والأستاذ حسني أفندي خليفه إلى رئاسة بلدية عكا، ومن الأقطاب العسكريين الهمام الأمثل والشجاع الباسل حسن أفندي مكاوي إلى مديرية شرطة عكا وقضاؤها، وإن كانت هذه الترقيات هي دون مستوى شخصيات هؤلاء العصاميين، إلا أنها كانت من دواعي الواجب المدني لقيامهم بمهامها بحزم كبير. إن الدوائر المشار إليها لها أعظم حظ لأن الذين يتولونها من الأعلام الذين يحيط علمهم كل ما هو جدير بالرفع إلى المجتمع وإلى الإنسانية والمدنية في العالم.

٢

ما زالت عكا تنجب شباباً يشرقون كالبدر في سماء العرفان، إن الجد في الأعمال والبروز بالشيم الكريمة والتعالي في المقام أبرز ما في شبابها الجديد الباسم لما في المستقبل القريب من الأمان والآمال.

الرُّقِّيّ؛ نشأته وناحية فضائله

تنازع البقاء حكمة من الحكم الجليلة الإلهية، هو من سنن الكون ولكنه من روائع حكمته تعالى، فيه تزدهر الحياة بالنشاط ازدهار الأشجار في الربيع وتفيض على العالم فضلا. لقد تتخيل المشاعر البشرية أمام هذه الحقيقة كما تتخيل أمام البياض الحاد في الغمام في الجو المكفهر بأن الشمس وراء ظهره، وهل الفضل الطامي على العالم هو دون الشمس؟ فذلك الفضل العظيم بقيمته الكبيرة، بسعة انتشاره العالي بتأثيره ونتائجه وهو الرقي فلولا تنازع البقاء ما أقتحم البشر آفات الأخطار ولا أخترق سدود المصاعب ولا خلق الرقي ولكانت النفوس البشرية في سأمه في احتضار ويأس مستديم، وأما أن الرقي سبب للعالم البطالة وبدد فضائله كما يقول (جان روسو) أحد الفلاسفة الأقدمين فهي تصورات خالية التحكيم مضطربة الإلهام لا يستقر عندها الاعتراف بحكمة التنازع المذكور وفضل الرقي على العالم.

تأبين فيصل الأول ملك العراق

نسكب أدمعا على الراحل العظيم أم على قضيتنا الكبرى؟ إن فيصل امتطى خيول حنكة والده وركض في ميدان العالم ولكن هل فاز؟ فذلك مما سيذكره التاريخ. كنت على شواطئ الفلسفة أناجي الخيال، وأراني اليوم على جبل السياسة أناجي الحق. أرى أمم الغرب أطيارا تنهادى على جثث الشرق. إن الشرق لم يميت وإنما أغمي عليه بالحقن، وسيطر كغيره متى انقضى زمن تأثيرها، فكان فيصل الراحل الذي أظهر في هذا العام الدهاء في آخرها وكاد ينجح في سياسته. لقد خسرت بريطانيا هموته صديقها في الشرق وخسرنا رئيس سياستنا وحنكتنا.

سحر بريان رجال السياسة بالخطابة وسحر فيصل القوة بالدهاء أن وراء بريان أنصار السلام ووراء فيصل أنصار الحق فالسلام والحق كلمتان جميلتان وقد يسود السلام في موضع الباطل ولا يسود الحق وكان فشله في دمشق لخطيئات رجال حكومته وليس لعدم تدبيره فالفضيلة للخاتمة وكانت خاتمة حياته نوراً شيع من قبره ويضيء نواصي الشرق. إنني أعزي الأمة العربية بشخص نجله الملك الجديد وسائر ملوك وزعماء العرب بفقده بأن الدهاء العربي ثمرًا من ثمار السياسة اليوم.

فإلى ذلك: الدهاء الساطع بهيكله واسمه وذكره من بعده وفي غيره من أنصار الإنسانية في الشرق والغرب علق الآمال السعيدة آمال العالم بأسره.

مرافئ السَّعادة وجمال البحار العلم والجهل في عالم الحقائق

العلم نور يسطع بريقه على العقول فتستنير طريقها على الأعمال وتتألاً كأنها الدر المنبثق أو التاج اللامع.

العلم بحر واسع وعلوم المدارس شواطئه ولا يستطيع المتخرج منها أو الدارس فيها أن يعد نفسه عالمًا إلا إذا غاص في ذلك البحر وأخرج منه كنوزه وجواهره، وأقسم أي كنت بين المكاتب في الأستانة لاشتراء الكتب بحيرة الذي لا يعرف مكانه في العلم ومع كل ما درسته من العلوم في مدارس عكا والأستانة وفي الكتب الضخمة التي كنت اشتريتها من المكاتب وأدرسها والتي كانت تسهرني الليالي الطويلة لا أعد نفسي شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى العلم لأن كلمة العلم كلمة كبيرة فالفضاء الواسع بما فيه من سعة وفراغ قد ملأته تلك الكلمة في احتضانها إياه فكان العلم هو اللب والفضاء الواسع هو القشر الذي يحيط به ويحافظه، فأكثر الأمم احتمالاً للمصائب والويلات هي الأمم التي تحرص على العلم حرص الأجساد للأرواح فنسبة العلم للجهل مختلف في الأمم وأكثر الأمم حرصاً عليه هي ألمانيا وإنجلترا لأن الألمانين والإنجليز لا يوجد فيهم جهلاء إلا ثلاثون في الألف؛ ولذلك فلا تؤثر عليهم الأزمات والشدائد فالعلم هو الذي يغرس في القلوب نبات الإخلاص هو الذي يذيب من النفوس الشريرة ذرات الشر المستحكمة فيها فأكثر الناس بعداً عن الحسد والبغض والحقد والنميمة والأضرار هم الذين درسوا

العلم وساروا في بحره الواسع وشربوا من مائه العذب اللذيذ الذي
ينعش الصدر ويزيل عنه الكرب، ويفرح القلب فيبدد عنه الهموم.

لم يكن الجهل يوماً من الأيام صديقاً للعلم بل هو العدو الذي يعمل
لاستئصاله من الجذور والبلاد التي يتغلب فيها.

الجهل على العلم كثيرة المتاعب لأن من الحقيقة المتعارفة أن الضعيف
لا يقوى على احتمال ضربات القوي وكثيراً ما يهلك ويموت لشدتها
وهذه بلادنا العربية فإن الجهل السائد فيها هو القابض على عنقها
بحيث هي اليوم كالنعامة بيد الأسود الاستعمار والاستعباد فخير
وسيلة يمكن بها اتقاء الشر في البلاد العربية هو العمل لجعل التعليم
في المدن والقرى إجبارياً وهذا ممكن إذا بذل كل من الآباء عنايته على
أولاده في التعليم والتدريس.

وإني أضمن بأنه لا يمضي زمن يسير على البلاد العربية إلا ويأتيها
الاستقلال من نفسه ماشياً على قدميه فلا تشعر الا وهي في أحضانه
مرفهة سعيدة فتصعد على سلم الرقي صعود الأمم الأخرى وتعلوا في
سماء التمدن وتسطع فيه كالنجم المنير.

ولقد حدا بالكثيرين من أهل البلاد بأن يقولوا إن في البلاد علماء
عددهم واف للقيام بما يجب القيام به نحو الوطن والجواب على
ذلك هو أن في البلاد لا يوجد إلا النذر اليسير من العلماء الحقيقيين
وأما العملاء الخياليين الذين يظنون بأنهم من العلماء لم يكونوا في
نظري سوى جهلاء يتلبسون بالعلم وهو براء منهم. ثم أن تسعمائة

وخمسون في الألف لا يقرأون ولا يكتبون من هنا يتضح بأن الجهل سائد في البلاد يغشى صفاء سمائها بسحاب مظلم من الشرور والضغائن وقد بات من المتعذر إفهام الناس واجباتهم نحو الوطن فضلاً عنما يحدثه جهلهم من التفرقة في الصفوف في أزمئة نحن أحوج فيها إلى الاتحاد والوفاق فأشد ويلا على البلاد العربية والأمة العربية انقسام أبنائها ومناوأة بعضهم بعضاً وإذا كان هناك من خطر فرق كلمتهم فالجهل بلا شك هو ذلك الخطر الذي إذا استوى على أمة قوض دعائمها وحطم بروجها وقلاعها وتصبح عرضة لمكائد السياسة الغادرة وأعاصير وزوابع التقلبات الزمنية.

على أن الإخلاص لضعف العقيدة الوطنية مفقود ويا أسفا! فالوطن العربي الحزين يندب اليوم حظه باكيًا وتكاد دموعه المنهمرة تغير صفاء الجو وزهاء المياها فالبحر بأواجه العاصفة بهبو بها والأشجار باهتزازها تشن لحزنه. تلك حالة مؤسفة، تقاس آلامها وطنًا يشمل ترابه مضاجع الأنبياء ومرقد العظماء وطنا يعد أكثر من مائة مليوناً من البشر جزأته أنياب الدول الطمعة ونهشته فبات وهو على سرير الخمول والجمود لا حراك له وإذا قيل الوطن العربي فإنما يكون جميع الأقطار العربية من مصرعا ومغربها وسوريها وفلسطينها وحضر موتها وعسيريها و عدنها وعراقها ونجدها وبحرينها فجميع هذه الاقطار تحت النير الأجنبي وبين سلاسل وقيود تميل لهولها.

شواهد الجبال

نحن لا نربأ بصبغ الأقوال التي تخدعنا بها السياسة الطامعة التي إما ترمي بها غدرنا وتحاول إغراقنا في بحر ملذاتها وشهواتها بل تنظر بتلك الألوان نظرات الاستهزاء وإذا كان هناك من نيات حسنة في تاهيلنا وتدريبنا كما يقولون، لماذا يستعملون الجبر والقسوة وهل يقضي للتدريب عشرات الأعوام؟ إني لا أؤمن بالسياسة لأنها تعمل واجبها في حياة تنازع البقاء وبقاء الأنسب وإنما أؤمن بالعلم لأنها لم تتخذ العلم سبيلاً لخلصها تستنير بنوره وتقطف ثماره وتتشفق عبر رياحينه لتزهر لها الحياة، فكثير من أصحاب الثراء لا ينشئون بنهم على العلم لعقيدتهم الفاسدة بعدم الاحتياج فكان المال الذي بأيديهم أزي فلا تذهب به الرياح وفضلاً عنما ذكرته فإن نزوع بعض الموظفين من أبناء البلاد نحو وطنهم ومعاكستهم للمجاهدين في سبيل والزائدين عنه مما يزيد الحالة سوء ويفعمها خطراً فأصبح الساعي للخير كالساعي للشر في نظر بعضهم.

لقد كان المصاب مصاباً واحداً ولكنه اليوم بلاء فوق بلاء، فالوطن أبناؤه وبعض موظفيه والمستبدون براقبه أعداء له يرمونه من بين أيديه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته فلا يتنفس الصعداء ولا يرى له منفذاً ولا باباً للنجاة من الدموع لترجف متساقطة من العيون والسمت ليبلغ من القلوب فتجمد وإذا كان البلاء عقاب المجرم فليس لهذه الأمة منذ فجر تاريخها من ذنب تستحق من أجله هذا العقاب. إن عقاب البريء شيء منكر أنكروه الخالق وأبته شريعته فما من منصف

إلا ويراه إجحافاً وينتقص له بجميع جوارحه وعندى أنه يجب على كل من له في عواطفه رقة وفي نفسه طهارة وشرفاً من رجالات هذه الأمة أن يعمل لاستئصال جذوة الشر المستحكمة بين ظهرانيها ويرفع شأنها براً لها ولنفسه وليكن بذلك شديد الرفق بالعاطفة والإحسان. إن العمل لاستئصال جذوة الشر إنما يكون بنشر العلم كما تقدم ذكره تقشع سحابة الجهل التي أظلمت للهدى طريقه وللنجاح نصابه وللتوفيق مكانه فأعميت القلوب وعميت الأبصار وباتت الأمة كأنها جماد من فوقه لجة من فوقها لجة من فوقها سحاب ظلمات بعضها فوق بعض وليس من الصعب على قادة الأمة ورجال زعامتها بأن ينشروا العلم بل أن ذلك أمر يسير يكثر عدد المدارس وإجبار الآباء عموماً على القيام بواجب أولادهم في التعليم فالوطن يطالبهم بحقه ويلبوا ندائه إذا كانوا مخلصين. أين القلوب القاسية مكانها فلنفتش عنها ولنكسرهما بعواطفنا ولنعمل بكل قوانا لتمزيق ريش الجهل لينبت مكانه ريش ناعم من العلم يمكن به الصعود إلى المراتع التي ترتع فيها الأمم الراقية الحية لنحيا حياة السعادة الحقيقية وننفذ عنا غبار الأحلام.

في عالم الخيال، وعلى ذكر العلم والتعليم أتقدم بخالص الشكر لجلالة الملك حسين لما أبداه من

الغيرة والحمية في تعميم العلم في الحجاز بإعداد المدارس الكبيرة والصغيرة وبناء المباني العلمية أثناء حكمه في ذلك القطر المقدس كما أتقدم بخالص الرحمات إلى روح المرحوم محمد عبدو مفتي الديار

المصرية الذي خدم مصر في إبان حكمه بنشر العلم وإعداد كثير من المدارس الأهلية وأطري بالثناء والشكر الأعظم على فخر العالم الإسلامي سماحة الشيخ عبد الله أفندي الجزار قاضي عكا وأصحاب المعالي وزراء مصر لما قاموا به من العناية في نشر العلم وإن كانت تلك الأعمال خالدة تسجلت على صفحات القلوب وعلى متن التاريخ إلا أنها لم تنزل ناقصه شيئاً جوهرياً أرجوا أن يتممها غيرهم من العظماء في البلاد العربية بازدياد النشر ووضع قانون إجباري يجبر جميع الآباء على القيام بواجب أولادهم عملاً بالكتاب والسنة

أين عظماء فلسطين؟ أين عظماء سوريا ولبنان؟

أين عظماء العراق؟ أين عظماء مصر؟

أين أمراء الحجاز ونجد والعسير والبحرين واليمن وحضرموت؟

أين عظماء الديار التونسية والجزائرية؟ أين جميع هؤلاء العظماء؟ لقد دنت الساعة التي يعمل فيها المخلصون لخدمة أوطانهم فليتلفوا بجدهم على نشر العلم بين جميع طبقات مواطنيهم بالسعي لوضع قوانين صارمة وضرائب فادحة على الذين يرفضون العلم ويؤثرون الجهل عليه.

إن الوطن ينظر إلى هؤلاء العظماء بعين ثاقبة تذرف الدمع ويتنهد بشهيق الحزن الحاد ولا شك أن الوطن الذي أنبت ذلك الطين وعظمه وفضله على غيره يلاقي منه عطفًا وإحسانًا مقابل عطفه وإحسانه

وأى مخلوق لا يبادر المحسن بمقابلته على الإحسان بأكثر مما أحسن به؟ لقد فضل الوطن العربي هؤلاء العظماء على غيرهم وخصهم بالعظمة وجعلهم موضع الفخر والتبجيل يبجلهم سائر الناس وتحترم شخصياتهم البارزة المتألثة بالعظمة الطبيعية العالية فهم يقابلون ذلك الوطن ببذل أموالهم وأنفسهم لخدمته قيامًا بواجب خطير يقدرون خطورته ويقدمون مكانته

إنني بين الذين ذكرتهم من العظماء لم أذكر والدي المرحوم السيد عبد الفتاح أفندي السعدي، فإن أعماله لا يزال يلمع بريقها في جدران البرلمان العثماني في الأستانة وفي زوايا المؤتمرات الوطنية السياسية أقول والأسف والحزن يملآن نفسي وعاطفتي بأن غربت شمسها وغاب عنا خياله. إن خطواته التي تماثل خطوات الأسد لم يزل خيالها ماثلاً في المخيلات. أكتب هذه الكلمات والدمع ينهمر من عيني حزناً ولكن عزائي أنني أرى شمس السعادة تشرق على وطني وعلى نفسي من بين أعمال هؤلاء العظماء فالإيمان هو الذي يقود القلوب ويرعاها في بطاح الأعمال الصائبة فتتهادى في ذلك السهل الخصب كما يتهدى الحمام في رياض الأزهار فلولا إيمان هؤلاء العظماء ما علو ولا علت كلمتهم وهو الذي يقود قلوبهم الكبيرة إلى حيث يلاقون المجد والعظمة. لقد حوى التاريخ في بطونه كثيراً من أعمال العظماء الأقدمين وهذه الأعمال هي اليوم نور الماضي الساطع تسطع علينا من خلال وريقاته، فتجعلنا نبتمس للمستقبل وذلك للآمال التي نعلقها على العظماء؛ أي أمة مهما علت وعظم مجدها لا يغدر بها الزمان وأي رجل علت به مكانته

وارتفعت به صولته لا يغلب على أمره وإذا كان الزمان غدر بهذه الأمة فلسوف يرأف بها ويرفع ساقه عن عنقها إشفافاً عليها فيتترك لها الجو صافيًا هادئًا ليطير بها عظمائها إلى حيث هناك العز ونعيم الحياة. إنني ناضلت بقلمى هذا عن القضية العربية زمناً طويلاً وقد كتبت هذا على شاطئ البحر في منتزهات بيروت وفي أعالي قمم (عالية) في جبل لبنان وليس لي فيه غاية سوى خدمة الأمة العربية التي أرجو أن تتخذ الإخلاص رائدها في أعمالها لتصل سفينتها السائرة في عرض البحار إلى مرفأ الهدوء والأمان إن العمل لخير الهيئة الاجتماعية أرفع وسيلة للذين يبتغون، رضوان الله فليعمل المخلصون ما استطاعوا خيراً لأمتهم، فهي اليوم بأشد الحاجة لذلك وأي عمل أجل وأعظم من إنقاذ أمة من هاوية سدت نوافذها وقفل بابها وخفت صوت الاستغاثة بحيث لم يبق له من أثر وأي فخر أجل وأعظم من إعلاء كلمة أمة هبطت إلى أسفل مكان عرف في مسرح العالم وإن كانت الأمة هبطت وزلت فتعلو يوماً ويزهو فيها ماء الحياة

على أن القوى الكامنة المتأججة في صدور العظماء هي نور الأماني التي تشع على الأمة العربية فتخفف عنها ويلات الظلام وهذا الدور تحدته أيدي المستقبل الهائفة بشدة كالشرار الذي يحدثه صدام الفولاذ بالأحجار فعلى ذلك النور الساطع المتألق ألقى حبال آمالي وآمال الأمة العربية وإليه أهدي خالص التحية والسلام.

الخيال الأعلى

سماء تسطع بالكواكب أم جنات النعيم؟ حسناء هيفاء أم ملك عظيم؟ وردة في وادي تجري أنهاره أم نرجس على جبل عظيم؟ بماذا نستطيع أن نصف الأدب الرفيع كأدب جبران خليل جبران؟ كلا إننا لعاجزون، فلنضع إذا جواهره جمالاً للناظرين. قال في مقاله «نظرة إلى الآتي» ما يلي:

«من وراء جدران الحاضر سمعت تسايح الإنسانية

سمعت أصوات الأجراس تهز دقائق الأثير معلنة بدء الصلاة في معبد الجمال - أجراس سكبها القوة من معدن الشواعر ورفعتها فوق هيكلها المقدس - القلب البشري. من وراء المستقبل رأيت الجموع ساجدة على صدر الطبيعة متجهة نحو المشرق منتظرة فيض نور الصباح صباح الحقيقة.

رأيت المدينة قد اندثرت ولم يبق من أثارها غير طلل بال يخبر الرجال باندحار الظلمة أمام النور».

وقال في وصف «القرآن» ما هو آت:

«وهنا يبتدئ الحب أن ينظم نثر الحياة شعراً وينشئ من معاني العمر سوراً ترتلها الأيام وتنغمها الليالي. ههنا يزيح الشوق ستائر

الأشكال عن معميات السنين الماضية. القران تكاتف اثنين قوين
بجهما لمقاومه دهر ضعيف، هو انهيال غيث نقي من سماء طاهرة
نحو طبيعة مقدسة لاستخراج قوى حقول مباركة»

أو زهرته (حياة الحب):

«هلمي يا حبيبتي نمشي بين الطلول فقد ذابت الثلوج وهبت الحياة
من مراقدها وتمايلت في الأودية والمنحدرات. سيري معي لتتبع آثار
أقدام الربيع في الحقل البعيد. تعالي نعد إلى أعالي الربا ونتأمل في
تموجات اخضرار السهول حولها.

ها قد نشر فجر الربيع ثوبًا طواه ليل الشتاء فاكتست به أشجار
الخوخ والتفاح وظهرت كالعرائس في ليلة القدر. واستيقظت الكروم
وتعانقت قضبانها كمعاشر العشاق. وجرت الجداول راقصة بين
الصخور مرددة أغنية الفرح وانبثقت الأزهار من قلب الطبيعة
انبثاق الزبد من البحر. تعالي لنشرب بقايا دموع الطبيعة كؤوس
الزجس ونملأ نفسينا بأغاني العصافير المسرورة ونغتئم استنشاق عطر
النسيمات لنجلس بقرب تلك الصخرة حيث يختبئ البنفسج وتبادل
قبلات المحبة»

رحم الله جبران وغفر له، إن منزلته في نظري بعد تأديته رسالاته إلى
العالم كمنزلة حكيم ألبس الدنيا فضلا من الأفضال التي تزينها وقوله
في مقاله (حكاية) في وصف إنسان يناجي حبيبته من خوارق الأسحار
وهو:

«وأنت يا من أخاف من اسمها أن أدعوها باسمها. أيتها المحجوبة عني
بستائر العظمة وجدران الجلال. أيتها الحورية التي لا أطمع بلقائها إلا
في الأبدية حيث المساواة. يا من تطيعها الصوارم

وتتحنى أمامها الرقاب وتنتفح أمامها الخزائن والمساجد قد ملكت قلباً
قدسه الحب واستعبدت نفساً شرفها الله وخببت عقلاً كان بالأمس
حرّاً بحرية هذه الحقول فصار اليوم أسيراً بقيود هذا الغرام ومما
قاله في مقاله «خليلي» ما هو آت:

«لو علمت يا خليلي الفقير أن الفاقة التي تقضي عليك بالشقاء هي
هي التي توحى إليك معرفة العدل وتبثك إدراك كنه الحياة لرزيت
بقسمة الله. قلت: معرفة العدل لأن الغني مشغول عن تلك المعرفة
بخزائنه. وقلت: كنه الحياة؛ لأن القوي منصرف عنها إلى المجد فافرح
إذن بالعدل لأنك لسانه وبالحياة لأنك كتابها».

فواجع التّسليح

ألقي اللورد ملنر وزير الحربية الإنكليزية في الحرب العظمى في حفلة أدبية في لندن سنة ١٩٢٥ خطابًا جاء فيه:

«إن مناظرة الشعوب عامل من عوامل الارتقاء ولكن إذا أريد أن يكون عاملاً نافعاً وليس عاملاً ضاراً! وجب أن تجري هذه المناظر ضمن حدود فلا تكون نزاعاً وحشيّاً على التّسود والسّودد بدون أن تتقيد بشيء من المبادئ الأدبية وإذا لم يكن شعور فالأمم واحد في القواعد الأدبية الجوهرية فإن تطرفها في القومية قد يبعثها على تمزيق بعضها بعضاً. إن الخطر يهدد جذور الحضارة الأوروبية وقد بدأ الخلاف يظهر للعيان بين القواعد الجوهرية عند الأمم ولا يسعنا الاعتماد على التقدم المادي ونجعله كافيّاً للتوفيق بين الشعوب فقد شاع هذا الاعتقاد في أواسط القرن الماضي ثم ظهر بعد ذلك أنه كان وهمّاً وضلالاً. أن توالي سبعون عاماً جرى فيها الدم كالأنهار مما لم يسبق له مثيل في التاريخ نفى تلك الأوهام وليس من سبيل لكبح جماح الأفكار الثائرة في الشعوب سوى التقريب بينها من الوجهة الأدبية».

إن اللورد المشار إليه من الذين يديرون دفة السفينة العالمية ويظهر إنه رأي سخورا وهاله الخطر. لقد قطع العالم في التّفنن بالتّسليح شوطاً بعيداً ولذلك نرى اللورد يبحث عن طريق لينقذ العالم منه فالطريق الذي أشار إليه خيالياً أكثر منه حقيقياً وهل يمكن كبح جماح الأفكار الثائرة في الشعوب فات معاليه أن سنة الكون تقضي

بتنازع البقاء وبقاء الأنسب لتجلى حكمته تعالى بعدم دوام الأحوال في الوجود والدهر كفيل بتمثيل أدواره وإذا كان هناك عاملاً أدبيًا يفيد العالم هو أن يكون فيه القانون المشترك يلغي الأسلحة التي اخترعت في القرن العشرين ويحدد التسليح فالتقريب بين الأمم أدبيًا في هذه الناحية فقط كفيل بإنقاذ الحضارة من الدمار. إن الاختراعات الجهنمية وضعت البشرية في أنون من الولايات لا يطاق حتى باتت الأمم لا تكاد تتنفس الصعداء إلا وترى نفسها غارقة فيه والطريق الوحيد هو أن تصحو أوروبا من هذا الإغماء الجنوني وتعمل لتخفيف البلاء الذي أناخ بكلكله على الإنسانية.

سؤال وجواب

جاءني من أقصى الهند السؤال الآتي:

«يا صاحب الزوابع

«مضى زمن طويل واعدائي يعتدون علي بالبطش والغدر والتحقير دون أن أقابلهم بسوء أو أحقد عليهم غير أن استمراري على الصبر والتحمل حمل الكثيرين على تشوية فضيلتهما بوصمة العجز والضعف فصرت أتعثر بأذيال الفشل بين استمرار أذى الأعداء وبين تشويه الناس فما قولكم؟»

يا صاحب السؤال

إن كنت تلبس رداء الفضيلة لتظهر الفضيلة لا للفضيلة، فلست فاضلاً واخلع عنك هذه الأزياء المستعارة. وإن كنت عكس ذلك مع الناس وشأنها فيك. إن السعادة التي يعترفون بأنهم بعيدون عنها فالفضيلة مقرها. كن سعيداً فيها ولا تلتفت نحو الشقاء.

أما تسامحك فهو كوكب في سماء حياتك يسطع من وراء الحقيقة لا الخيال. ولتكن نفسك صافية كالبحر الهادئ فتتلاً في السعادة والحياة كما يتلاً على سطوح المياها جمال السماء و بهجة الملاً الأعلى».

كوارث العالم

نشر أحد مشاهير الأطباء الأميركيين في الصحف الأميركية مقالا نشرته جريدة البرق البيروتية قبل بضع سنين جاء فيه:

«إن العالم سائر على مهل إلى حالة الجنون، ولا تمضي بضعة قرون إلا وتصبح الأرض ومن عليها مجانين وسبب ذلك: المشروبات الروحية والتبناك والدخان والشاي والقهوة والإقامة في المنازل المختنقة والمنازل المغلقة إلخ.»

إن قول الدكتور هذا غامضًا قليلًا ولكنه يظهر واضحًا جليًا بأقل تفكير يقصد حضرته أن هذه الأشياء تضعف الأعصاب وتعرضها لأشد الأخطار، ومن المعلوم في عالم الطب وكما يعرفه أكثر الناس أن ضعف الأعصاب من الأشياء التي عجزت فيها حيل الأطباء وهي كذلك تنتقل بالوراثة وبما أن ضعف الإرادة وقوتها منوطان بضعف الأعصاب وقوتها فتكون الأعصاب محور الحياء في السعادة والشقاء.

إن أعصاب العالم إلا القليل النادر ضعيفة وتتزايد ضعفًا؛ ولذا تجد حوادث القتل تقع كل أسبوع ضمن منطقة صغيرة وحوادث الاعتداء والسرقة كل يوم والشتم والافتراء والاحتقار كل ساعة أو كل لحظة فجميع هذه الحوادث تنجم عن ضعف الإرادة التي هي نتيجة ضعف الأعصاب. لو كان المعتدون أو الشاقون والسارقون والمفترون والنامامون ذي إرادة قوية لحكموا على أنفسهم بعدم الوقوع بمثل هذه الرذائل المخزية سيما وأنهم يعلمون ما ينجم عنها من حوادث

القتل المفجعة التي يشاهدونها بين آونة وأخرى. إن نظرية الدكتور المشار إليه عالية جدًا ترسم الحقيقة بجلائها أمام العالم وتعلنه أن شتائه ومييمته وافترائه وضربه وقتله إن هي إلا حالات جنون تصيبه. فجميع العالم إلا القليل النادر يفقدون عقولهم كل يوم أو كل لحظة في حالة أعمالهم الشريرة التي تكون الشقاء اليوم. كل هذا وغيره يثبت صحة قول الدكتور المشار إليه إن العالم سائر إلى حالة الجنون بالتدريج.

البوهيميّة والنّاس أو العلم والجهل

اطلعت في العدد ٣٦٣ من مجلة (كل شيء) إحدى مجلات (دار الهلال) على مقالة لأصحابها الحكماء والأفاضل تحت عنوان شوقي بيك البوهيمي، تناولت البوهيمية وحقيقتها وحقيقة المرحوم أمير الشعراء منها جاء فيه:

«إن البوهيمية قلق دائم جبل عليه أصحاب الفنون الجميلة ونزاع إلى الحركة ومخالفة المألوف من العادات والخروج على العرف فترى الفنان يسرف في تجواله هنا وهناك ضالا كمن يبحث عن شيء، مفقود فلا يجده أبد الدهر كالغريب الذي يطارده سوء الحظ وكالهارب من اضطهاد طاغية تجد في طلبه. فالبوهيمية على نحو ما شرحنا من مميزات الفنان بل هي من أظهر مميزاته وأدلها على أنه مطبوع غير زائف على أنه يحسن الإشارة إلى أن البوهيمية قد تلبس بنوع خاص من الالتواء الخلقى وشذوذ السلوك ولقد أصاب أمير الشعراء حظا غير يسير من صفات البوهيمية فدل ذلك على أنه فنان موهوب»

قرأت المقالة المذكورة المرة تلو الأخرى وأمعنت النظر فيها فرايتها تنطبق على النبغاء الحكماء البوهيميين الذين يتخذ بعض الناس بوهيميتهم للحكم على طيشهم وخفتهم تارة وجنونهم تارة أخرى. إذن إن للعلم عيونًا غير عيون بعض الناس وقلبًا غير قلبهم وأيهما أفضل يا ترى؟! إن العلم ينضج أفكارًا نيرة وأجساما صحيحة وصحة وشفاء وأنوارا ولآلئ وسرعة ونظامًا ومحبة وسلامًا، والناس تنضج شقاءً وبؤسًا

وإجرامًا وفتنة وفسادًا ونفاقًا ورياء وحسدًا وافتراء واعتداء واحتقارًا
واغتصابًا وتكبرًا. العلم يروض النفوس ويهذبها ويرعاها والناس تسقيها
دمًا وحرامًا. ولكن لماذا هذه الهياكل الخيالية الضعيفة الهزيلة تتغلب
على العلم الصحيح القوي. أقف الآن على سطح الفلسفة وأمد ببصري
في جهاتها الأربع فأرى العلم قوي البنية صحيح الجسم عزلاً من
السلاح ولو كان السلاح من مخترعاته والهياكل هي الجيوش المسلحة
بسلاحه تحيط به أو هو الكوكب المتألق وهم الغيوم المدلهمة ولم
يقدر عدل الحكومات ولا نظام الملوك وكرامات الرسل أن تصلح العالم
وما نشأت الأقاليم إلا كمطاردة الرياح للأمطار وكما أن الأمطار تسقي
الأرض تفيض فوقها غير مكتثرة بريها فإن الظلمات لا تكثر بالأنوار.

مناجاة الجمال

في صباح وقفة العيد بتاريخ ٤ نيسان سنة ١٩٣٣ امتطيت سيارة توفيق صالح أغا القادمة إلى عكا وما أن بلغت السهول المجاورة لبلد الشيخ حتى استوقفتها ونزلت منها وتركتها تجري في طريقها إلى عكا وجلست على بساط الربيع أناجي أزهاره. كانت الأزاهير تتراقص أمامي كأنها تحتفي بمقدمي أو أنها هازئة ساخرة بقدوم من حرمة الطبيعة من كواكبها المشرقة فبات وحيداً تعبت به ظلماته حتى هام على وجهه يلاطمه سوء طالعته وأتى به إلى هذا المصير.

إن سوء الطالع لم يرافقني في الجيش ولا في ميادين العلم والأدب ولكنه رفيقي في الحياة الزوجية حرمني حلاوة الحب وأعطاه في أجمل أيام شبابي ولا أزال اقصي مرارة الحرمان حتى هذه الوقفة السعيدة ووقفة العيد فهذا العيد عيد الصدور التي تضم بين الأزاهير كواكباً وفي ضوء القمر رياحين. لقد وصف الله تعالى جمال النساء بقوله (زهرة الحياة الدنيا) فالنساء الجميلات هن الملاك العظيم الحاكم على الناس جميعاً بالحياة أو الموت هن الكواكب المتألقة بالنور الذي تغالزه النجوم وتناجيه الشمس والقمر في الشروق والغروب. أي نور أعظم وأجل من ذلك الذي يخترق إلى القلوب عند ذكره وتذبل العيون لرؤيته. مرت أمامي ساعة كتابه هذه الكلمات فتاة قرويه قادمه من حيفا يشرق وجهها في ربيع قوامها إشراق البدر في المروج النظرة تتهادى بين نظرات الجبال وقبلات النسيم ومناجاة الأطيوار وابتسامات السهول فاستوقفت نظراتها الساحرة قلمي عن جربه وصفق لرؤيتها قلبي

فنسيت نفسي وكأنني في عالم الأحلام. لقد قطعت المسافات في جريها وعيني تتعقبها حتى صعدت إلى صفحة الجبل المجاور لبلد الشيخ وكأنها ترسم ذلك الجبل على قلبي حتى صرت أشاهده في كل مكان. كان حفيف الرياح وتموجات الأعشاب والأزاهير وأغاريد الأطيّار كحفلة غناء تتخللها الأنغام الموسيقية على أوتار العود، فانقلب هذا المنظر الساحر بفراقها إلى مآتم عظيم وانتظرت السيارات بفارغ الصبر ولما أقبلت سيارة السيد (مبارك إبراهيم) حضرت معها إلى عكا لمشاهدة العيد وما أنا في عيد.

الموت الأحمر في إيوان الانتقام

إذا جرى الإحصاء فيما وقع أو يقع من الجرائم يظهر لأول وهله رقمًا ضخماً يعادل بمفرده الأرقام الأخرى مجتمعة ويزيدها وذلك الرقم الكبير هو جرائم الغدر والاعتصاب. يغتصب الغاصب استنادا إلى قوة أو أمانة لم يؤدها لأصحابها أو شهادات دعاة السوء ويتخيل بأنه فاز فوزاً عظيماً. ولكن الله أعدل فلا يدعه يهنأ بغنيمته ويلهم صاحب الأمانة أو الحق بالانتقاص.

إن دمه الذي يهدر فوق الأتربة والأحجار تبتلعه الطبيعة في جوفها ليظل موضع لعنتها إلى الأبد وحبال الشمس أو أعين البدر والنجوم والأفق أنامل السماء تسجل لعنتها فيه ومع خسرانه الدنيا وما طمع به أو ساقته إليه أنانيتة أو أركبه الغرور على خيله لينتصر بحرابه فإنه يلاقي الطبيعة بأسرها فوق الثرى والدود في الجذث والله وملائكته وسائل الانتقام من باطله إلى الحق روحانية القانون والحياة.

حدثني أحد الناس قال:

«إني مقيم في بلد (...) ولي عدد غير قليل من الأعداء فاستمرار عدائهم حملني على اتخاذ خطة للدفاع سليمة فلا تلقيني في غياهب السجون أو ظلمات القبور. ولم أجد أسلم لي من ضربة أحدهم بالكف باليد التي لا تترك مكانها أثراً يمكن به الشكوى وليكن عبرة لغيره غير أن في بلدي المذكور ضابط بوليس وطبيب اتفقا على تجسيم الحادث بأن

الكف المذكور أحدث في الرأس من الداخل أشياء تخيلوها للتوهيم على القضاء وعلى القانون بالنتيجة إنهم حاولوا سحقي من الوجود»

هذا ما حدثني به فليسمع به العالم العالي بعلاء مدينة أن أنوار المدينة التي تزين الدنيا إن أشرقت فوق الثرى وفي الفضاء فإنه لم يزل دونها ظلمات بعض النفوس المنحطة من البشر والعالم وأن يتقدم فإنه محجوب عن النور وراء ستائر الظلام المذكور. يريد هؤلاء الذين وضموا أنفسهم مكان الله أن يضيروا أناساً في الدنيا ليظهروا بمظهر الحاكمين على الضرر والنفع كالله دون أن تقابل أضرارهم ولكن القوانين التي يلبسونها أشرف من أن تستر خبثهم وضلالهم فتقلب في الحال إلى ستائر روحانية تخترقها أشعة أدمع المظلوم فتضيء ما تحتها وتظهر الحقيقة كما تظهر الشمس والقمر والنجوم وراء الغيوم.

لقد مثل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قدرةً استثنائيةً على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءاً من الإيماءة ومروراً بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوئاً مُتعدّد الطبقات، يقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الرّمن.

إن تمدّداً على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيّب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأت صدفةً، إنها انبثاقنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الواسع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقراء.

وزير الثقافة

عماد عبدالله حمدان



مشروع النشر الرقمي